قراءة في كتاب تاريخ غزة لعارف العارف

Reviewing the Book of *the History of Gaza* by Aref Al-Aref

زكريا محمد العثامنة
أستاذ مشارك / جامعة القدس المفتوحة/ فلسطين

Zakaria Mohammad Al-Athamna
Associate Professor / Al-Quds Open University/ Palestine
zathamna@qou.edu

Received: 15/08/2020**, Accepted:** 24/11/2020
DOI: 10.33977/0507-000-056-005
https://journals.qou.edu/index.php/jrresstudy

تاريخ الاستلام: 2020/08/15، تاريخ القبول: 2020/11/24
E-ISSN: 2616-9843
P-ISSN: 2616-9835

الملخص

كتاب تاريخ غزة لعارف العارف كُتب في مدينة غزة، وصدر عن مطبعة دار الأيتام في القدس عام (1943م)، حيث كان يشغل عارف العارف حينها قائم مقام لواء غزة في الفترة من (1940م-1944م)، ويقع الكتاب في (356)صفحة من القطع المتوسط يتناول فيه المؤلف تاريخ غزة متسلسلاً زمانياً، فبدأ بالحديث عن موقعها، وأهميتها التاريخية، وأسمائها التاريخية المختلفة ومعنى كل اسم منها، ثم ينتقل للحديث عن بناة غزة الأولين، والشعوب التي سكنتها منذ القدم، والعصور التاريخية التي مرت عليها، والدول التي حكمتها حتى الفتح الإسلامي، وأوضاع غزة في العصور الإسلامية المختلفة، ويتحدث بإسهاب عن فترة الحكم العثماني حتى الانتداب البريطاني، وسقوط غزة تحت الحكم الإنجليزي، حيث عايش هذه الفترة وكتب عنها. ثم يفرد فصلاً كاملاً عن غزة حتى يومنا هذا عام (1943م)، ويخصص الفصل الأخير من كتابه للحديث عن أهل غزة، وطباعهم، وأخلاقهم، وملابسهم، وأعيادهم، ومواسمهم، وعن أحوال غزة الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية.

الكلمات المفتاحية: عارف العارف، غزة، الانتداب البريطاني، أسواق غزة، ميناء غزة.

Abstract

*The book of **the History of Gaza**, written by Aref al-Aref while staying in Gaza city, was published by Dar al-Aytam al-Islamiyya Press, located in Jerusalem in 1943. At that time, Aref al-Aref assumed the position of sub-governor of the Gaza district (Ottoman district officer) in Gaza in the period from 1940 to 1944. The book consists of 356 pages and contains mid-sized paragraphs. The author addresses the history of Gaza sequentially over time. He starts by talking about its position, historical significance, different historical names, and the meaning of each name. Then, he turns to talk about Gaza's first builders, the peoples that inhabited Gaza since ancient times, the historical times, the nations that ruled it until the Islamic conquest, and the conditions of Gaza city during the different Islamic ages. Furthermore, he elaborates on the Ottoman rule period until the British Mandate that resulted in the fall of Gaza under the British rule where the author himself experienced these events and wrote about them. After that, he devotes an entire chapter to Gaza until the year 1943. The last chapter of the book is devoted to talking about the people of Gaza and their manners, morals, clothes, and festivals. The author also talks about Gaza's economic, social, and cultural circumstances.*

***Keywords**: Aref al-Aref, Gaza, The British Mandate, Gaza Markets, Port of Gaza.*

المقدمة

مثلت غزة محطة مهمة في تاريخ فلسطين، وكانت بوابة قدوم الفاتحين إلى بلاد الشام؛ لينشروا السلم ودعوة التوحيد، وكذلك بوابة الطامعين الذين أرادوا طمس الحق، ليستولوا على فلسطين ويسيطروا عليها، وهنا تكمن أهميتها عبر الزمان، حيث صنع الإنسان الكنعاني فيها الزجاج وجبل الفخار، ولم يدخلها الطامعون بسهولة، بل واجهوا على أبوابها مقاومة بروح التحدي والقوة.

بهذا التاريخ أكملت غزة تسميتها، ورسمت حروفها في صفحات التاريخ، فكانت جزءاً أساسياً من الحضارة العربية الإسلامية بالسلوك الثقافي لأهلها، وبمدنيتها المتحضرة عبر تاريخ الحضارة الإسلامية.

وجاء هذا الكتاب "تاريخ غزة" لمؤلفه "عارف العارف" والذي نحن بصدده ليأخذ مكانة مهمة في مؤلفات عارف العارف، وتكمن أهميته في كونه أول الكتب المطبوعة التي كتبت عن غزة، وكان ذلك في فترة الانتداب البريطاني لفلسطين (1917م-1948م) حيث شغل مؤلفه قائم مقام مدينة غزة، وكان لهذا الموقع أهميته للمؤلف الذي تواصل مع عائلات غزة، وزار مكتباتها، وقابل علماءها، وكتب عنها.

وتبرز أهمية الكتاب- أيضاً- في تأريخه لفترة مهمة من تاريخ غزة، حيث كان شاهداً عليها، وهي فترة الانتداب البريطاني لفلسطين.

وعن تاريخ غزة يقول المؤلف بأنه تصفح عدداً كبيراً من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، وأوردها حسب تاريخ حدوثها، وبغض النظر عن دقة المعلومات التي أوردها المؤلف، وخاصة في تاريخ غزة القديم إلا أن أجزاء كثيرة منه- خاصة ما يتعلق بفترة الحكم العثماني وفترة الانتداب البريطاني- تعد وثيقة تاريخية لا غنى عن المؤرخين لهذه الفترة لدراسة الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية لغزة.

وقد قسمت الدراسة إلى قسمين: خصص القسم الأول لسيرة المؤلف "عارف العارف"، مولده، ونشأته، وحياته، وتعليمه، ومؤلفاته، وأهم المناصب التي تقلدها، ونشاطه في الحركة الوطنية الفلسطينية في فترة الانتداب البريطاني، والقسم الثاني خصص للحديث عن كتابه، وهو تاريخ غزة منذ القدم حتى الفترة التي عاش بها المؤلف في غزة، وهي فترة الانتداب البريطاني، واعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي في تقديم شخصية المؤلف، وإبراز المؤلف الذي نحن بصدده.

لمحات من سيرة المؤلف

مولده

هو عارف بن شحادة بن عبد الرحمن بن مصطفى العارف، وكان والده شحادة تاجراً متوسط الحال في البلدة القديمة في القدس (بشارات، 1999: 80)، وُلد عارف العارف سنة 1892م (تماري، 1981: 15).

تعليمه

التحق عارف بالمدرسة الثانوية في القدس، لكنه كان يتوق إلى السفر إلى إسطنبول للالتحاق بمعاهدها العلمية، حيث سافر إلى إسطنبول سنة 1906م عندما كان في سن الرابعة عشر، والتحق هناك بإحدى مدارسها الثانوية، حيث أنهى هذه المرحلة في عام 1915م (العمد، 2005: 149-151). أتمّ عارف العارف دراسته الجامعية في إسطنبول، ونال منها شهادة في الإدارة، والسياسة، والاقتصاد سنة 1913م (تماري، 1981: 112).

انتماؤه القومي

عندما تخرج عارف العارف عمل محرراً ليلياً في صحيفة (بيام التركية) لسد نفقات تعليمية، ثم اشترك في تحرير صحيفة بيام (الموسوعة الفلسطينية، 1984: 150)، وانتسب خلال إقامته في إسطنبول إلى المنتدى الأدبي الذي تأسس بعد إعلان الدستور العثماني بفترة وجيزة.

وقد عاش في فترة إقامته في تركيا في جو الحركة العربية، وما كان من نقاشات بين الأفكار المتعددة التي حملها المثقفون العرب (العودات، 1976: 400).

وتأسس المنتدى ليكون بيتاً عربياً في إسطنبول، يلتقي فيه العرب المقيمون والزائرون، وكان فوق الإقليميات والطائفيات، وكان يشهد حفلات تنشد فيها الأغاني والأناشيد القومية، وتُلقى فيها المحاضرات في مآثر العرب وحقوقهم (دروزة، 1993: 326)، وكان عدد المنتسبين للمنتدى العربي يقدر بالآلاف، وكان له فروع متعددة في مختلف مدن سوريا والعراق (أنطونيس، 1982: 184).

وعندما تخرج عارف من الجامعة عُين موظفاً في قاعة الترجمة لوزارة الخارجية التركية لإتقانه اللغتين العربية والتركية (الموسوعة الفلسطينية، 1984: 308).

تطوعه في الجيش

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى(1914م-1918م) انخرط عارف العارف في الجندية، وبعد أن قضى فترة التدريب ستة أشهر، تخرج في الكلية برتبة ضابط، وانتقل للعمل في القفقاس (الموسوعة الفلسطينية، 1984: 308-309).

ويروي عارف العارف أن كتيبته التي يعمل، بها اشتركت في معارك عدة خاضها الجيش التركي ضد الروس، وأنه وقع في الأسر بعد معركة (أرض روم الشهيرة)، تلك المعركة التي هزم فيها الأتراك هزيمة كبيرة، وانتصر الروس، وأُبيدت كتيبته، ولم يبق إلا عشرة أنفار من بينهم عارف العارف، حيث سيق مع الأسرى الى معسكر في أواسط آسيا، ثم إلى سيبيريا، وقد مكث هناك ثلاث سنوات في ظروف قاسية جداً (العودات،1976: 304).

وعندما وقعت الثورة البلشفية وانهار النظام القيصري في روسيا وانتصار البلشفية، مع انتشار الفوضى في إدارة معسكرات الاعتقال الروسية، ومع أخبار هزائم الجيوش العثمانية بعد الثورة العربية، شجع ذلك عدد كبير من الأسرى العرب على الفرار من المعسكر (دروزة،1993: 326)، وكان ذلك في أيلول (سبتمبر) 1916م، واستمرت رحلة الهروب خمسة أشهر (العودات، 1976: 400) حتى وصل إلى مسقط رأسه في القدس أواخر شباط (فبراير) (1919م) بعد غياب دام عشرة أعوام (العارف، 1957: 13).

لم تكن القدس التي غادرها عارف العارف عام (1906م) تحت الحكم العثماني كالقدس التي عاد إليها تحت الحكم العسكري البريطاني، حيث المشاريع البريطانية، ووعد بلفور في فلسطين، ومعاهدة سايكس بيكو لتقسيم بلاد العرب (العارف، 1957: 4).

وقبيل وصول العارف إلى فلسطين بأشهر معدودة، كان الأمير فيصل بن الحسين قد دخل دمشق في أول تشرين الأول (أكتوبر) (1918م) على رأس قوات الثورة العربية، والذي أحدث أثراً كبيراً في نفوس الشعوب العربية في سوريا وكذلك فلسطين، ولكن الجهد الفيصلي لم يدم طويلاً، حيث كانت نهايته في (25 تموز (يوليو) 1920م) باحتلال فرنسا دمشق، وطرد فيصل منها (العارف، 1957: 5)

ومن أول ردّات الفعل في فلسطين على إقامة الوطن القومي لليهود، أنشأ وفد من زعماء القدس من المسلمين والنصارى سنة (1917م) بأيام قليلة جمعية سموها (الجمعية الإسلامية المسيحية) (العارف، 1957: 6)؛ هدفها المطالبة بحكم وطني استقلالي، ورفض الوطن القومي اليهودي، ومناوأة الهجرة اليهودية، وبيع الأراضي لليهود الوافدين، والتشديد على الحقوق الطبيعية لأهل البلد، الذين يشكلون الأكثرية الساحقة فيه (العارف، 1957: 7)، وأخذت مدن فلسطين تحذو حذو القدس، بحيث ما لبثت أن أسست فيها جمعيات مماثلة مختلطة باسم الجمعية الإسلامية المسيحية (دروزة، 1993: 311).

نشاطه السياسي في فلسطين

ما أن اكتملت شبكة الجمعيات الإسلامية المسيحية في فلسطين حتى تقرر عقد مؤتمر لممثليها في القدس؛ من أجل وضع ميثاق وطني يوضح مطالب البلد القومية، وعرضها على مؤتمر الصلح في باريس، وعُقد المؤتمر في الفترة ما بين (٢٧ كانون ثاني (يناير)–9 شباط (فبراير)1919م) وحضره ممثلو الجمعيات الإسلامية المسيحية، وانتخب كل من عارف الدجاني الداودي رئيساً، ومحمد عزة دروزة سكرتيراً له (دروزة، 1993: 318).

وكان هذا أول المؤتمرات السبعة التي عقدت خلال الانتداب البريطاني (دروزة، 1993: 319)، في هذه الأجواء عاد عارف العارف إلى القدس مسقط رأسه، وانضم إلى النادي العربي بسبب توجهاته القومية الوحدوية (دروزة، 1993: 319).

وفي أيلول (سبتمبر)(1919م) قرر النادي العربي في القدس إصدار مجلة، وصدر العدد الأول منها في (1919/9/8م) (الموسوعة الفلسطينية،1984: 369).

وغادر عارف العارف فلسطين إلى دمشق بعد موسم النبي موسى مع الحاج أمين الحسيني بعد اتهامه بالتحريض ضد الحكم الإنجليزي، وحكم عليه بالسجن عشر سنوات (الموسوعة الفلسطينية، 1984: 375)، ثم عاد إلى فلسطين بعد العفو عنه في آذار (مارس) (1921م) من قبل المندوب السامي البريطاني (هربرت صموئيل) الذي اشترط عليه عدم العمل بالسياسة (دروزة، 1993: 345).

سيرة عارف العارف فترة الانتداب البريطاني:

تنقسم سيرة العارف خلال فترة الانتداب البريطاني (1920-1948) إلى أربع مراحل:

امتدت المرحلة الأولى (1921م–1926م) عمل خلالها قائماً مقام لأقضية جنين، ونابلس، وبيسان، ويافا، وفي هذه المرحلة تزوج برفيقة عمره صائمة البورنو سنة (1922م) (الموسوعة الفلسطينية، 1984: 600).

وشهدت المرحلة الثانية (1926م–1929م) انتقاله للعمل في شرقي الأردن، حيث تولى منصب السكرتير العام لحكومة الأمير عبد الله بن الحسين (الموسوعة الفلسطينية، 1984: 354) (دروزة، 1993: 395).

وتمتد المرحلة الثالثة (1929م–1943م) حيث انتقل إلى جنوب البلاد، وعمل خلال الأعوام العشرة الأولى قائم مقام في قضاء بئر السبع، وفي الأعوام التالية قائم مقام في قضاء غزة (مناع، 2008: 131).

ويشير المؤلف في صدر كتابه عن غزة إلى أمنية الوحدة العربية والاستقلال التي حملها بين أضلعه، ويعبر عن سروره بأن هذه الأمنية أخذت هذه الأيام تطل من وراء السحاب (تماري، 1981: 121) (العودات، 1976: 401).

أما المرحلة الرابعة والأخيرة من سيرة عارف العارف أثناء الانتداب البريطاني، فقد قضاها قائم مقام في قضاء رام الله من لواء القدس، وفي الأعوام الأخيرة من الانتداب تم ترفيع العارف إلى منصب مساعد حاكم لواء القدس البريطاني (البرغوثي، 2001: 231)، وألّف كتاب تاريخ الحرم القدسي (1947م) (تماري، 1981: 125).

وبعد أن اندلعت المعارك في فلسطين عقب صدور قرار التقسيم في (29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947م) (العارف، 1963: 87)، بقي عارف العارف في منصبه في رام الله قائم مقام، ومساعداً في لواء القدس البريطاني طوال المرحلة الأولى من القتال، وبقي في منصبه بعد انسحاب القوات البريطانية من فلسطين في (14 أيار (مايو) 1948م)، وبقي في منصبه إلى ما بعد إقرار اتفاقيات الهدنة الدائم ما بين الدول العربية وإسرائيل (العارف، 1963: 118).

إلى أن عينه الملك عبد الله رئيساً لبلدية القدس عام (1949م) وهو منصب أحرزه مرة أخرى في الانتخاب، وظل فيه حتى (1955م) (العارف، 1963: 128).

وفاة عارف العارف

بعد أن سقطت القدس تحت الاحتلال الإسرائيلي في (يونيو) حزيران (1967م)، تلقى عارف العارف في (1968م) دعوة من رئيس بلدية القدس الإسرائيلي (تيدي كولك) الذي جاء بعد احتلال المدينة وتوحيدها مع شطرها الشرقي بعد طرد رئيس بلديتها روحي الخطيب، فقام عارف العارف بالاعتذار عن تلبية الدعوة (العودات،1976: 402)، وقد اشتاق إلى زيارة بيته القديم في حي البقعة الذي احتله اليهود خلال حرب (1948م)، الذي أصبح الوصول إليه ممكناً بعد احتلال إسرائيل القدس الشرقية والضفة الغربية سنة (1967م)، ويرفض من احتل البيت من السماح له بزيارته، حيث عاد مهموماً كئيباً، وأصيب بجلطة حتى توفاه الله في (1973/7/30م) عن واحد وثمانين عاماً رحمه الله، ودُفن في مدينة القدس مسقط رأسه (العمد، 2005: 154-155).

مؤلفاته

انكب عارف العارف خلال إقامته في بئر السبع وتقلده منصب قائم مقام المدينة على دراسة عادات البدو، وأخلاقهم، وطبائعهم، وطرق تقاضيهم، فألّف في ذلك كتابين، أولهما: القضاء بين البدو عام (1933م)، وثانيهما: تاريخ بئر السبع وقبائلها عام (1943م) (البرغوثي، 2001م، ص227)، وقد عكف عارف العارف خلال فترة رئاسته لبلدية القدس على عمل عملين ضخمين: أولهما كتابه عن النكبة في سبعة أجزاء، وصدر الجزء الأول عام (1950م)، وثانيهما: سلسلة كتب عن تاريخ القدس ومقدساتها، وصدر له في ذلك على التوالي سنة (1951م) المسيحية في القدس، والموجز في تاريخ القدس، وكتاب ثالث بالإنجليزية عن قبة الصخرة (The Dome of the Rock)، وبعد ذلك تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى (1958م)، والمفصل في تاريخ القدس عام (1958م)، وعُيّن سنة (1963م) مديراً للمتحف الفلسطيني الذي بني في فترة الانتداب البريطاني بفضل معونة من مؤسسة (روكفار) الأمريكية.

وبعد انتقاله إلى غزة ألّف كتاب تاريخ غزة عام (1943م)، وطبعت هذه الكتب كلها في مطبعة بيت المقدس (البرغوثي، 2001: 228).

كتاب "تاريخ غزة" لعارف العارف

هناك العديد من الكتب والدراسات التي تناولت تاريخ غزة، حيث تناولت أوضاع غزة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، منها كتاب (كشف النقاب في تاريخ غزة وما حولها من الأعراب) وهو مازال مخطوطاً لمؤلفه الشيخ أحمد بسيسو، وهو شيخ العلماء والطرق الصوفية في مدينة غزة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتحدث في كتابه عن النواحي الاجتماعية، والثقافية، وعشائر وقبائل منطقة غزة، وأعيان وعلماء مدينة غزة منذ أقدم العصور حتى يومه، ويعد الشيخ أحمد بسيسو من أوائل العلماء الذين خصصوا كتاباً يتحدث عن أحوال مدينة غزة في العصر العثماني والعصور السابقة.

وكتاب (إتحاف الأعزة في تاريخ غزة) للشيخ عثمان مصطفى الطباع (1882م-1950م) (الطباع الغزي، 1999م) من أهم المصادر التاريخية التي تحدثت عن مدينة غزة منذ العصور القديمة حتى بداية القرن الحديث، وقد قسم المحقق الكتاب إلى أربعة مجلدات، فخصص الأول والثاني للحديث عن تاريخ غزة منذ أقدم العصور حتى نهاية الحكم العثماني، وتحدث في القسم الثالث عن أنساب مدينة غزة وعائلاتها، فيما خصص القسم الرابع للحديث عن تراجم مدينة غزة وأعيانها. وقد استفاد عارف العارف من هذا المؤلف في كتابه، حيث عايش مؤلفه عندما كان قائم مقام لمدينة غزة، وأهدى نسخة من كتابه إلى الشيخ عثمان الطباع.

ويتميز كتابه عن كتاب الطباع بأقسامه التي خصصها لتاريخ غزة القديم منذ ظهور المدينة وحتى العصور التي مرت عليها، كذلك حديثه المسهب عن الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية للمدنية في عهد الانتداب البريطاني، وفترة الحكم العثماني، وهذا لم يتطرق إليه الشيخ الطباع.

ومن الكتب التي تحدثت عن مدينة غزة كتاب (تاريخ غزة) نقد وتحليل الأستاذ حلمي (أبو شعبان) الصادر في عام (1943م)، حيث انتقد فيه كثيراً من المعلومات التي أوردها عارف العارف، معتمداً على ما جاء في كتاب الشيخ عثمان الطباع من معلومات، ولكنه أشاد بالمؤلف الذي عده أطلساً تاريخياً لمدينة غزة.

ومن المؤلفات التي تناولت تاريخ غزة كتاب (غزة عبر التاريخ)، ويقع الكتاب في ثمانية أقسام من الحجم الصغير، وخصص كل قسم للحديث عن غزة في فترة زمنية للمؤرخ إبراهيم سكيك، حيث صدر القسم الأول عام (1981م) وصدر آخر قسم عام (1988م)، وهو في مجمله دراسة مبسطة لتاريخ غزة من أقدم العصور حتى العصر الحالي (سكيك، 1981م).

والكتاب الذي نستعرضه هو (تاريخ غزة) لعارف العارف، والذي نُشر عام (1943م) وصُدر عن مطبعة دار الأيتام في القدس. ويقع الكتاب في (356) صفحة من القطع المتوسط، حيث يتتبع فيه المؤلف تاريخ غزة متسلسلاً زمانياً، ولم يوزع كتابته في أبواب وفصول، وإنما تحت عناوين صغيرة وفرعية بلغت ثمانية وثلاثين عنواناً، بدأها بالحديث عن غزة وأهميتها التاريخية، وذكر أسماءها المختلفة ومعناها.

ثم تحدث عن بناة غزة الأقدمين، ثم غزة في عهد من دخلوها أو تعاملوا معها، حتى أواخر عهد الاحتلال الإنجليزي، إلى أن يفرد فصلاً عن غزة عام (1943م)، ثم بعد ذلك يتحدث عن أخلاق أهل غزة، وطباعهم، وملابسهم، وأعيادهم، ومواسمهم، وعن تل المنطار في غزة، وعن جوامعها ومساجدها.

وقد مهد العارف لكتابه بمقدمة تحدث فيها عن مصادر كتابه العامة، وعن الخطوط الأساسية فيه بقوله "... عشت في هذه البقعة من البقاع العربية ردحاً من الزمن، تيسر لي خلاله أن أدرسها دراسة تامة، فرأيت من واجبي أن أنقل ما عرفته عن هذه البقعة من المبادئ الأخلاقية، والفوارق الاجتماعية، والعوامل الاقتصادية، والحوادث التاريخية إلى أبناء قومي الآخرين".

وعن كتاب تاريخ غزة يقول المؤلف نفسه "... إنني تصفحت من أجله عدداً كبيراً من الكتب والأسفار العربية والإفرنجية، وجمعت ما تبعثر في بطون الكتب والأسفار من أحاديث وأخبار، فصنفتها بعد أن محصتها، وأوردتها حسب تاريخ حدوثها، ثم استنطقت الطلول والآثار، وقرأت ما حدثني به عن مفاخر الآباء والأجداد".

وبغض النظر عن دقة الروايات التاريخية والمصادر التي يعتمدها المؤلف في كتابه، وخاصة في تاريخ غزة القديم، والذي يسبق التاريخ الإسلامي، فإن الكتاب في أجزاء كبيرة منه يأتي وثيقة تاريخية مهمة لا يستغني عنها باحث في تاريخ غزة، خاصة عندما يتحدث المؤلف عن الظروف الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والتعليمية، وما يتعلق منها من مظاهر ومنشآت في العهد التركي وفي زمن الانتداب البريطاني.

والكتاب الذي نعرضه لم يفقد علميته، وقيمته، وعمقه على الرغم من أنه افترش في مادته مساحة تاريخية واسعة قبل الميلاد وحتى أعوام الأربعينيات الأولى. وهو كتاب لم يفقد منهجيته وعلميته، رغم أنه لجأ إلى الموسوعية في التناول، وإلى العناوين الصغيرة الفرعية المتتابعة تاريخياً عوضاً عن الأبواب والفصول. وفي اعتقادي إن كتاب عارف العارف مازال يحتل المكانة الأولى في تاريخ غزة وأحوالها في تلك الفترة، وإن الكتب التي جاءت بعده لم تضف شيئاً جديداً يذكر. كما أن الكتاب يؤسس لأرضية علمية، وبنية مناسبة لتقام عليها الدراسات المتخصصة، والمتنوعة، والخصبة عن تاريخ غزة في مراحله المختلفة. فحين نتصفح الكتاب فإننا لا شك سنتوقف عند بعض النقاط المهمة فيه، والتي سنوردها في العرض لاحقاً، وتوقفنا عندها ينبع من كونها تحمل معلومات، وحقائق، وأرقام، ومن كونها- أيضاً- تضيء جوانب في تاريخ هذه المدينة العريقة مازالت قائمة.

فغزة التي عايشت الاحتلال الإسرائيلي(1967م–2005م) وتعيش الحصار منذ ذلك الحين إلى يومنا الحاضر، وتعرضت لأكثر من حرب في السنوات القليلة، إلى جانب الاعتداءات الصهيونية المتواصلة لترابها وأهلها، الآن تستلهم من تاريخها الطويل المليء بالمعاناة، والانتصارات، والحضارة أيضاً ما جعل عارف العارف يشعل منه بعض المشاعل التي لم تنطفئ.

غزة وهي في الأسر تستند الى تاريخ من النضال، مازالت جذوته تشتعل، وتضم من الفلسطينيين قوماً مازالوا يناضلون ويؤمنون بغزة، الحرة العربية التي هي جزء من فلسطين.

في البداية يتحدث المؤلف عن أصل تسمية غزة بهذا الاسم، ويورد آراء مختلفة حول معنى الكلمة، واشتقاقاتها، وهل هي من العزة، والمنعة، والقوة كما يقول المؤرخ (يسابيوس)؟ أم من الخزينة والثروة كما تقول مصادر فارسية ويونانية؟ كما يورد المؤلف أنه يوجد ثلاثة مواقع باسم غزة، الأول في جزيرة العرب ذكرها أبو منصور، وكذلك الشاعر الأخطل بقوله:

كأنها بعد ضم السير جبلتها من وحش غزة موشى الشوى لهق

والموقع الثاني بلد بأفريقيا بينها وبين القيروان نحو ثلاثة أيام تنزلها القوافل القاصدة إلى الجزائر، والثالثة غزة المشهورة من أعمال فلسطين، ثم ينتقل الكتاب بعد ذلك ليتحدث إن كانت المدينة الحالية قائمة على أنقاض المدينة القديمة، أم أنها بنيت على بقعة من الأرض غير البقعة التي أنشئت فوقها من قبل، كما يورد المؤلف رأياً آخر أن غزة لم تنقل من مكانها، وأن تل العجول كان ثغرها التجاري.

بعد ذلك يتحدث عن علاقة الفلسطينيين بغزة منذ زمن سبق زمن قدوم النبي إبراهيم إليها، أي منذ أكثر من (40) قرناً، حيث اتخذها الفلسطينيون حصناً منيعاً لهم. كما يذكر أن غزة أهم المدن الفلسطينية القديمة، وتأتي في مقدمة خمس مدن كبيرة هي: أسدود، عسقلان، عاقر، وعراق المنشية.

ويورد المؤلف قصة (شمشوم الجبار)، ودليلة الفلسطينية في غزة، والتي تبين كيد بني إسرائيل وكرههم للفلسطينيين ولأهل غزة منهم خاصة، بحيث أن (شمشوم) رضي بالموت مادام في موته موت لأعدائه الفلسطينيين عندما قال كلمته المشهورة (بي وبأعدائي يا رب).

كما يذكر المؤلف أن الآشوريين استولوا على غزة سنة (734 ق.م) وكانوا يسمونها غزاتو، ولكنها تحالفت مع مصر ضدهم ثم جاءها (سرجون الآشوري)، فأخضعها، وأسر ملكها (حاتون) سنة (720 ق.م)، وسميت غزة في عهدة (مارنا)، وبقيت غزة في قبضة الآشوريين حتى احتلها الفرس. وفي زمن السيطرة البابلية كانت مدينة كبيرة كما ذكرها المؤرخ (هيرودوتس).

لم يرحب أهل غزة بالفرس، بل قاوموهم، ولكنهم ما لبثوا أن حاربوا معهم ضد الغازي الإسكندر المقدوني الذي احتل غزة عام (322 ق.م) وانتزعها من الفرس. وفي أواخر عهد الفرس ارتادها العرب من الجزيرة بالكامل، وأصبح المؤرخون يعتبرون الغزيين عرباً أقحاحاً (تاريخ غزة، 1943: 50).

كان الفرس يسمون غزة (هازاتو) وكانت مركزاً من مراكز تجارة البخور، وعندما جاءها الإسكندر أعجزته بالصمود الذي استمر أربعة أشهر، حتى تولى العرب والفرس الدفاع عنها.

ويورد المؤلف أن (الإسكندر المقدوني) لم يجرح في حروبه كلها إلا في غزة، عندما أصابه الغزيون في حربة في كتفه حتى إذا ما دخل المدينة غاضباً ذبح أهلها عن بكرة أبيهم، وباع النساء والأولاد في السوق بيع العبيد، وتذكر المصادر التاريخية أنه قتل من سكانها آلاف غالبيتهم من العرب. وفي عهد (الإسكندر) وخلفائه تعززت علاقة غزة باليونان والثقافة اليونانية التي حلت محل الثقافة السامية، وراجت بين سكان غزة المسكوكات والنقود باسم (الإسكندر)، وآلت غزة إلى خلفاء (الإسكندر)، ثم إلى البطالمة في مصر، وفي زمن البطالمة قاومتهم غزة، ورفضت دفع الضرائب العالية لهم، وكان ذلك في عام (298 ق.م)، وبعد زوال الحكم المصري (البطالمة) عن غزة أصبحت تابعة للسلوقيين في سوريا إلى أن جاءها الأنباط العرب، وأخذوها منهم قبل أن يأتي الرومان ويضمونها إلى إمبراطوريتهم الواسعة بعد احتلالهم لفلسطين (224 ق.م–63 ق.م).

ويعتبر عارف العارف أن العصر الذهبي في تاريخ غزة كان عصر اليونان، حيث كانت تسمى غزة المقدسة والعظيمة، وكانت يومها أكبر مدن سوريا على الإطلاق.

وعلاقة غزة بالأنباط معروفة، حيث روى المؤلف كثيرا منها مبيناً أن الأنباط سارعوا إلى نجدة العرب فيها يوم حاصرها (الإسكندر) الأكبر.

أما في زمن الرومان، فيذكر المؤلف أنهم شنوا عليها حملة قوية لم تنجح في دخولها إلا بعد حصار استمر سنة كاملة، حيث دخلها الرومان وضربوها، ثم بنوها بعد ذلك لتعيش حرة مستقلة، وأطلقوا عليها اسم (مينوا)، وفيها سكوا نقوداً كثيرة، وبنوا مصانع، وذكروا اسم غزة على مسكوكاتهم، وعلى وجهها الآخر حرف(m) إشارة إلى المعبد الذي أقاموه في غزة باسم (مارنا)، وكانت غزة آنذاك تحتل المقام الأول في كل البلاد الشامية. ويذكر المؤلف أن غزة في زمن الرومان تحولت إلى مستعمرة عسكرية يديرها امبراطور روما مباشرة بواسطة مندوب ينوب عنه، ويدير المدينة باسمه، ولم يكن لأحد حق المواطنة في غزة إلا أهلها الأصليون، حتى أن الإمبراطور الروماني منع اليهود إطلاقا من حق المواطنة فيها (تاريخ غزة، 1943: 68). وفي تلك الأثناء كانت الجنسية الممنوحة للمواطنين فيها هي الجنسية الغزية التي تتم باقتراح الشعب (تاريخ غزة، 1943: 69)، وفي تلك الفترة كان في غزة محكمة بلدية، وكرسي قضاء، وهو أعلى منصب يمكن أن يتوصل إليه ابن البلاد، وكان فيها موظفون مختصون بالمحافظة على النظام العام، وصيانة الأخلاق، وكان يطلق عليها اسم (Trenarehane) أي منطقة السلام، ويقومون بوظائف الشرطة، وينتخبون من بين عشرة رجال ترفع أسماؤهم إلى رئيس البلدية في كل عام، وكان في المدينة موظف يدعى "Deftensor populi" وهو مواطن ينتخبه مواطنوه ليصون حقوقهم في مدينة يسودها حكم الطبقات، وفيها موظف مسؤول عن حراسة معابد المدينة، وآخر مسؤول عن الأسواق.

ويتحدث المؤلف عن الحياة الدينية في غزة، ويبدأ بالحديث عن الوثنية قبل أن تدخل غزة في المسيحية، ويسمي فيها ثمانية هياكل كان العرب الوثنيون في الجزيرة العربية يتعاملون معها، ويشدون إليها رحالهم، فيما كان يعرف برحلة الصيف.

ثم ينتقل للحديث عن انتقال غزة إلى المسيحية في عهد الدولة الرومانية، ويذكر اسم أول من بشر فيها بالمسيحية، وهو فيلبس تلميذ القديس (بولس الرسول)، ويذكر أن لغزة آنذاك تقويماً خاصاً كانت تنفرد به عن غيرها اسمه التقويم الغزي، حيث تبدأ السنة الغزية حوالي عام (60ق.م).

أما علاقة غزة بالإسلام والفتح، فيذكر المؤلف أن ذلك جاء امتداداً لعلاقات غزة بالجزيرة العربية، حيث توفي هاشم جد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أثناء رحلات الصيف وفيها قبره، كما أن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني عاش في غزة فترة من الزمن، وأيضا كان قد هبط في غزة عبد الله بن عبد المطلب والد النبي يوم خرج إليها في

تجارة، حتى أن الرسول قال عنها، وقد خبرها في التجارة "... طوبى لمن سكن إحدى العروسين غزة وعسقلان"، وعلاقة الرسول بغزة تعدت ذلك، حيث بيّن شمس الدين في كتابه (قاموس الأعلام) أن إحدى النساء اللواتي صحبن النبي تدعى غزية كانت تكنى بأم الشريك وهبت نفسها إليه، وكانت تبغى أن يتزوجها، وكثيراً ما رويت عنها، أو نقلت الأحاديث النبوية (تاريخ غزة، 1943: 114). وفي بداية الفتوح الإسلامية فتح العرب غزة قبل أن يدخلوا مصر، وكان قد فتحها عمرو بن العاص الذي سار إليها سالكاً الطريق الساحلية إلى العقبة، ثم إلى غزة نازلاً بغمر العربات، وهو موقع في وادي عربة (تاريخ غزة، 1943: 117).

وكان فتح غزة قد تم في (634/2/4م) وهي أول مدينة فتحت في فلسطين، وكان عمر بن الخطاب قد مر بها في الإسلام بعد فتح القدس (638م)؛ متفقداً جيوش المسلمين، ثم زارها بعد ذلك بعام باحثاً عن وسائل أفضل لاتقاء خطر المجاعة التي كانت تهددها، وفي غزة ولد الإمام الشافعي، وكان يحن إليها، وقد ذكرها في شعره بقوله:

وإني لمشتاق إلى أرض غزة وإن خانني بعد التفرق كتماني
سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربتها كحلت به من شدة الشوق أجفاني

وفيها دفنت آسيا بنت الإمام الشافعي، وفي حين كانت لغة فلسطين قبل الإسلام تتوزع بين اليونانية في الأرياف، والآرامية في الوسط، كانت العربية في غزة وعبر الأردن، وخاصة في الأنحاء الجنوبية.

وتنقلت غزة من حاكم إسلامي إلى آخر، ففي عهد الأمويين حظيت فلسطين باهتمام كبير خاصة القدس، حيث تم بناء المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة في عهد عبد الملك بن مروان 73هـ-(694م)، وبناء الجامع الأبيض في الرملة في عهد سليمان، ثم انتقلت فلسطين ومنها غزة من حكم العباسيين إلى الطولونيين ثم الإخشيديين، وبعدهم حكمها الفاطميون الذين قضى عليهم السلاجقة، وأثناء الصراع ما بين السلاجقة مع الفاطميين جاء الصليبيون الذين طردهم من غزة صلاح الدين الأيوبي، الذي سجل التاريخ أنه دخلها مرتين: الأولى له عندما فتح مصر سنة (566هـ) وكانت آنذاك بين الصليبيين، والثانية عندما انتصر في حطين عام (583هـ) حيث دخل غزة، وكان عليها (ريكاردوس)، وفي عهد المماليك أقام فيها الملك الظاهر (بيبرس) مراراً عديدة، وكذلك السلطان (قلاوون)، وكانت في عهدهم من أهم المراكز البريدية، حيث كانت تنتشر فيها أبراج الحمام لتوزيع البريد، وكان موظفو البريد في غزة يحملون على صدورهم لوحاً من الفضة، ونقش على وجهه باسم السلطان الذي يجري في عهده، وفي الوجه الآخر كلمات لا إله إلا الله محمد رسول الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (تاريخ غزة، 1943: 163). وكان في غزة فلوس كل ثمانين فيها بدرهم، ويعد كل أربعة منها بحبة، وراحت فيها فلوس أخرى في أوائل الدولة الناصرية، وكان فيها معاملات بالدنانير والدراهم (النقرة)، وكان رطلها سبعمائة وعشرين درهماً بالدرهم المصري، وكان قياس قماشها بالذراع المصري، وأرضها بالفدان الإسلامي أو الرومي، وجيوشها من الترك والعرب. وكانت غزة تدار بطريقة النيابة؛ أي أن الأشخاص الذين على رأس المناصب كانوا يديرونها بالنيابة عن نائب السلطان بدمشق، وآلت غزة للأتراك العثمانيين عندما دخلها السلطان سليم الأول عن طريق البر عام (922هـ-1516م)، ومن الأتراك حكمها آل رضوان في عام (931هـ–1525م) وقد أحبوها، واتخذوها عاصمة لفلسطين كلها، ومن أملاكهم (الدبويا) وفي زمنهم بنيت مئذنة الجامع الكبير، ومئذنتان أخريتان من مآذن الشجاعية، وجامع القلعة، ودار المباشر، والبناء الذي اتخذه المجلس البلدي في الأربعينيات من هذا القرن مدرسة للإناث، وبنيت كذلك القيسارية (سوق التجار القديم) وخان الزيت، وحمام السمرة، وقصر الباشا، وغير ذلك.

وفي عهد آل رضوان زاد نفوذ غزة السياسي حتى أن الحجاج المسافرين من يافا إلى القدس كانوا يحصلون على أذونات بالسفر من غزة (ص 177).

ولآل رضوان في غزة مقابر خاصة لا تزال قائمة شرقي الجامع الكبير، ويذكر الرحالة التركي (أوليا جلبي) الذي زار غزة عام (1649م) وصفاً للمدينة يورده المؤلف، ومما جاء فيه أن لسكان غزة نوعاً من الخال يعرف بخال غزة هاشم، وهو طريف للغاية، ويليق بهم جداً، وهم يلبسون السمور، والفراجية، وثياب أخرى غير مزخرفة، وأما الطبقة الوسطى فإنها تكتسي ثوباً بسيطاً أبيض اللون، وأما العمال والطبقة الفقيرة من السكان فإنهم يلبسون سرتيه كراته، ولهذا الثوب أشكال مختلفة، وهؤلاء يلبسون أيضاً العباءة، والغزيون بوجه عام بيض الوجوه ذوي حواجب قائمة، وهناك فئة منهم سمر اللون كأنهم مدبوغون بالشمس، ويضيف الرحالة ".. إن أهل غزة ذوي عزم، وإحساس، ونشاط، وهم أحرار، وكرام، ومحبون للضيف، ولا سيما إذا كان غريباً، ويعيشون على التجارة والأعمال اليدوية (تاريخ غزة، 1943: 118). وفي عهد السلطان العثماني عثمان الثالث عام (1668م) حكم غزة الحاج حسين باشا مكة الذي توسع نفوذه حتى شمل القدس، وصيدا، وإمارة الحج، وولاية الشام. وفي عام (1814م) كانت غزة تدار من متصرف تركي يدعى حسين درويش، وكانت القدس تابعة لها. وممن حكموا غزة من الأتراك عبد الله باشا الذي ثار عليه الغزيون، واتفقوا مع عرب (التياها) و(الترابين) وطردوا موظفيه، وأعلنوا العصيان ضده، وكان يقود عصيان غزة رجل يسمى مصطفى الكاشف الذي وجه له الأتراك رسالة معروفة أوردها مؤلف الكتاب. ويرسم المؤلف صورة لغزة أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر للميلاد، ثم ينتقل إلى استكمال هذه الصورة في زمن الانتداب البريطاني وحتى سنوات الأربعينيات الأولى، ومما يكتبه المؤلف في هذا المجال يأخذ قيمة كبيرة، ويعد من أفضل صفحات الكتاب، وأكثرها أهمية وعلمية لما يحوي من معلومات مهمة ودقيقة عايشها المؤلف، ودونها، وعرفها، وقد ساعده في ذلك موقعه الوظيفي.

ففي أوائل القرن التاسع عشر للميلاد كان في غزة -كما يذكر المؤلف-أربعة آلاف منزل، وخمسمائة دكان، وأربعون نولاً للنسيج،

ومصبغتان، وأربعة معاصر للسيرج، وستة بدور للزيت، ومطحنة تدار بالفحم الحجري، ومعمل للبلاط، ودباغة واحدة، وخمارة واحدة، ولم يكن فيها فنادق، وإنما عدد من الخانات الذي يأوي إليها المسافرون، ومنها خان الزيت الملاصق للجامع العمري الكبير من القبلة. وكان في غزة مسلخ واحد، ولم يكن فيها صيدلية، وإنما دكاكين للعطارة، ومن الوجهة الاقتصادية كانت غزة ترتع في بحبوحة من العيش والرخاء، إذ كانت نفقات العيش فيها رخيصة، وكان بإمكان الأسر ذات الخمسن أفراد من الطبقة المتوسطة أن تعيش بائني عشر قرشاً تركياً في اليوم، أو ما يقارب الليرتين التركيتين في الشهر. وعلى صعيد السكن يبين المؤلف أنه كان لكل غزي دار يقطنها، أما الموظف الغريب فإنه كان يستأجر أحسن دار بعشر ليرات في السنة على أكثر تقدير، وكانت أجرة العامل في الحقل لا تزيد عن ثمانية قروش؛ أي بنسبة عمله قرشين ونصف قرش من عمله عام (1943م). أما خادم المنزل فقد كان يعمل من غير أجر، بل يكتفي بما يُقدم له من منام، وطعام، ولباس، وكان رطل اللحم بثمانية قروش، والسمنة رطلها بنصف ريال تركي، والزيت الجرة منه بنصف ليرة، ومحل البندورة (صندوقان) بأربعة قروش، والباذنجان بثمانية قروش تركية، ورطل السمك بعشرة قروش، والخروف الكبير بمجيدين، والصغير بمجيدي واحد.

أما العملة العثمانية في غزة، فقد تعددت، ولها نوعان: عملة مغشوشة، وهي عبارة عن البشلك (قرشان ونصف) والوزري (خمسة قروش) والعشراوية (متاليك)، أما العملة الذهبية فإنها عبارة عن (خيرية ومحمودية)، أما ما يسمى بالعملة المغشوشة وكانت رائجة في أسواق غزة، فقد كانت تباع وتشترى بقصد الزينة فقط.

ومن حيث النظام المالي يذكر المؤلف عارف العارف أن غزة كانت تدار مباشرة من وزارة المالية في (الأستانة)، بينما كانت عكا ونابلس وما يتبعها تدار من بيروت، أما أنواع الضرائب التي كان الأتراك يجبونها من غزة فهي:

1. (الويركو) والمسقفات
2. الأعشار
3. الأغنام
4. التنتع
5. الكروسة (العملة المكلفة)
6. المعارف

ولم يكن في غزة زمن العهد التركي أي طرق معبدة سوى طريق البحر الذي عبد زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وتقدر الضرائب التي كانت تجبى من غزة في أواخر العهد التركي بِ (15 ألف ليرة) تركية في السنة، منها (92%) تذهب للخزينة و(8%) في سبيل الجباية.

كان عدد سكان غزة في زمن السلطان عبد الحميد- على ما يورد المؤلف- حوالي (26,990 ألف) نسمة نصفهم من الإناث، ومعظمهم من المسلمين، ولا يشكل المسيحيون منهم (1055) نسمة، واليهود (33) فقط. أما القرى التابعة لغزة بما فيها المجدل، والفالوجة، وخانيونس فقد كان يعيش فيها (56588) ألف نسمة؛ أي أنه كان يعيش في قضاء غزة (82687) ألف نسمة، وكان عدد القرى المعتبرة من أعمال قضاء غزة في العهد التركي (67) قرية تقسم إلى أربعة مراكز.

وكان في غزة مدير للمال راتبه (800 قرشا تركيا، وفيها محكمة شرعية يرأسها قاض شرعي، وكان فيها دائرة للبوسطة، والتلغراف، والبريد، والبرق، ومجالس للمعارف، ودائرة عرفت باسم الديون العمومية، وكان مجموع الرواتب الشهرية التي تقاضاها موظفو الحكومة في غزة من الخزينة خلال عام (1904م) حوالي (869) ليرة عثمانية، ولم يكن في غزة يومئذ نوادٍ ولا جمعيات، وكان الحكم في البلاد لا يستند إلى الشورى (تاريخ غزة، 1943: 121)، ويتحدث كتاب تاريخ غزة عن دور الغزيين في مقاومة العثمانيين إبان الثورة العربية الكبرى، ويقول اشتركت غزة في الانقلاب على العثمانيين، وأسست شخصيات فيها فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي مكونة من أحمد عارف الحسيني، والحاج سعيد الشوا، ومحمد الصوراني، وحسني خيال، وخليل بسيسو، ومحي الدين عبد الشافي، وكان رئيسه ضابطاً في الجيش التركي يسمى (سنوس بك) (تاريخ غزة، 1943: 124).

وينتقل المؤلف بعد ذلك ليتحدث عن غزة في فترة محنتها عندما دخلتها القوات الإنجليزية في أعقاب هزيمة الأتراك فيها بتاريخ (17/4/ 1917م) بعد معارك حامية مع الترك ومع أهلها، حيث بلغت الخسائر (1975) رجلاً من العرب والترك، وخاصة عندما ضرب الأسطول الإنجليزي غزة من البحر، وضربتها قوات المشاة من البر؛ مما أدى إلى هدم أكثر من ثلث بيوتها، وهجرة معظم أهلها منها (تاريخ غزة، 1943: 186).

وفي غزة دشن اللورد (اللنبي الإنجليزي) مقبرة كبيرة لقتلى الإنجليز عام (1923م)، وكانت غزة منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا بوابة الفاتحين (ص223).

وفي زمن الاحتلال الإنجليزي لغزة زارها اللورد (كيتشنر) (Kitchener) وزير الحربية الانجليزي عام (1924م)، كما نزل بها الوزير (تشرتشل) عام (1921م)، وهو في طريقه من مصر إلى القدس بعد انتهاء مؤتمر القاهرة المشهور، وقد رافقه في رحلته (هربرت صموئيل) الذي كان أول مندوب سامي لبريطانيا على فلسطين، و(لورنس) المعروف بجاسوسيته وعلاقته مع العرب، وعندما وصلوا إلى غزة واجهتهم جماهيرها ساخطة محتجة على الانتداب الذي كانت قد علمت أخباره، وكان هتافهم ليسقط الانتداب الإنجليزي، لتسقط السياسة الصهيونية (تاريخ غزة، 1943: 231).

وفي الفصل الأخير من الكتاب، والذي أطلق عليه المؤلف اسم (غزة في يومنا هذا)، حيث يتناول المؤلف غزة في بداية الأربعينيات من القرن العشرين، فيتحدث عن مدى التطور الذي أصاب غزة قياساً بفترات التاريخ السابقة، فيذكر أسواقها ودورها في تصريف المنتوجات الزراعية، ويقول إنها تأتي بعد اللد من هذه الناحية (تاريخ غزة، 1943: 250).

ثم يتطرق المؤلف إلى الأوضاع السكانية والمعيشية في غزة في فترة الانتداب البريطاني، معتمداً على إحصائية لعدد السكان، فيقول: " وكان يعيش في غزة 23 ألف نسمة كلهم عرب، ويبين أن الحرب العالمية الأولى قد أصابت غزة بأضرار أكثر من أي مدينة أخرى في فلسطين، ففي حين كان عدد سكانها عام (1913م) أي قبل بداية الحرب العالمية بعام واحد قد وصل إلى (42) ألف نسمة، فقد أصبح عددهم عام (1931م) (17) ألف نسمة فقط، أما في عام (1944م) فقد بلغ عددهم (33) الفا، والسبب في ذلك كما يرى المؤلف بأن تركيا عندما أعلنت النفير العام، وعندما اتخذ الجيش الإنجليزي خطة الهجوم، فكان في حمص منهم (13) ألفا، وفي حيفا (7)آلاف، وفي يافا (15) ألفا (تاريخ غزة، 1943: 258).

وعن تردي الأوضاع الصحية في غزة في تلك الفترة، يتحدث المؤلف عن نسبة الوفيات بين الأطفال في غزة، فكانت في عام (1940م) مرتفعة جداً لدرجة أنها بلغت (166) طفلاً من كل ألف طفل (تاريخ غزة، 1943: 261).

ويسمي المؤلف أحياء غزة السكانية وهي: الدرج، الزيتون، التفاح، الشجاعية بقسميها الجديدة، والتركمان، يقول إن الشجاعية سميت بهذا الاسم نسبة إلى شجاع الدين عثمان الكردي الذي استشهد في سنة (637هـ) في فترة الحروب الصليبية.

كما يذكر بأنه يفصل بين حي الدرج والزيتون شارع فسيح أنشأه جمال باشا خلال الحرب العالمية الأولى، وأطلق عليه آنذاك اسمه، وغير المجلس البلدي اسمه عام (1932م) حيث سماه شارع عمر المختار (تاريخ غزة، 1943: 263).

أما غزة الجديدة، فيقول المؤلف إنها أنشئت فوق الرمال الممتدة من تل السكن على حدود المدينة القديمة إلى البحر، ويسمونها الرمال، أو الحارة الغربية، ومساحتها (3) آلاف دونم، قسمت عام (1934م) إلى بقع مختلفة المساحة بعضها دونمان، والآخر دونم، وبيعت للأهالي بسعر (3) ملات للمتر الواحد على الشوارع الفرعية، وخمسة ملات على الشوارع الرئيسة؛ وذلك من أجل صد الرمال التي كانت تزحف على المدينة في كل سنة من جهة البحر.

ويذكر المؤلف في مكان آخر أنه أنشئت في غزة غابتان جميلتان: الأولى على بعد ميلين من شمال المدينة إلى الغرب، والثانية على بعد ميل واحد من جنوبها إلى الغرب، وأن الفضل في إنجازها يعود إلى المثقف الغزي سعد الله بك البورنو، كما أن المؤلف يذكر أن أوسع حدائق غزة آنذاك كانت حديقة البلدية المعروفة بالمنتزه.

وغزة في أوائل الأربعينيات إلى قبل قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين كان فيها منازل للطبقة الراقية وكبار الموظفين، وملعب لكرة القدم أنشأه النادي الرياضي الغزي عام (1943م)، ونادي للتنس، ومقهى، ودار للسينما بناها رشاد الشوا، وغالب النشاشيبي عام (1940م) بكلفة وصلت (12) ألف جنيه. وقصة غزة مع الكهرباء يرويها المؤلف كما يلي فيقول: "... اختفت في غزة مسرجة الزيت في منتصف القرن التاسع عشر، وحل مكانها مصباح البترول الذي بقي يستعمل حتى سنة (1938م) حينما دخلت الكهرباء باتفاق بين المجلس البلدي وشركة كهرباء فلسطين، إلا أن سكان غزة ثاروا على الاتفاق بسبب عدائهم لمشروع الوطن القومي اليهودي، وأشعلوا ثورة عليه سنة (1945م) وعطلوه لفترة".

أما المدارس في غزة، فإن المؤلف يستعرضها على النحو التالي:

تأسست أول مدرسة حكومية في غزة عام (1887م) وهي ابتدائية كاملة آنذاك وفيها بعد ذلك قسم ثانوي ذو صفين، كما كان في غزة مدرسة أخرى عام (1927م) تضم (284) تلميذاً 12 معلماً، وهذه المدرسة أصبحت في عام (1941) تضم (1237) تلميذاً، ويصل فيها عدد المدرسين إلى (26) معلماً، كما تأسست في غزة في (1942/10/1م) كلية عربية سميت كلية غزة يتبعها قسم داخلي يضم (26) طالباً، وكان إلى جانب ذلك كله أربع مكتبات عربية للمطالعة حتى بداية الأربعينيات، ومن أكبر مكتبات غزة آنذاك مكتبة الجامع العمري، التي كانت تضم آنذاك (2500) كتاب بين مطبوع ومخطوط، كما كان هناك مكتبتان تجاريتان واحدة لهاشم الخزندار والأخرى لخميس أبي شعبان.

وعن تأسيس أول مجلس بلدي في غزة يذكر المؤلف أن ذلك كان في عام (1893م) حيث كان الرئيس الحاج مصطفى العلمي ثم جاء بعده ابنه أحمد، ثم علي الشوا، ثم عبد الله العلمي، ثم خليل بسيسو، وبعد ذلك الحاج سعيد الشوا الذي أنشأ في عهده المستشفى البلدي فوق تل السكن.

وفي فترة الاحتلال الإنجليزي تولى رئاسة البلدية محمود أبو خضرة، ثم عمر الصوراني، ثم فهمي الحسيني، وفي عام (1939م) رشدي الشوا ابن الحاج سعيد الشوا، وفي عهده توسع شارع عمر المختار، وبنيت دار البلدية الجديدة، وأنشئت الحديقة المعروفة بالمتنزه الجديد، كما حفر بئر الصفا الذي تشرب منه البلدية، وكانت ميزانية بلدية غزة قد وصلت في عام (1942م إلى 26120) جنيهاً فلسطينياً.

ويتحدث مؤلف كتاب تاريخ غزة بعد ذلك عن أسواق غزة قبيل الاحتلال الصهيوني لفلسطين وعددها، ويذكر الموازين التي كانت مستعملة فيها، كذلك مطاحن غزة، ومعاصر السمسم فيها، كما تحدث عن صناعة الدباغة، والنسيج، والألبسة الصوفية والقطنية، وعن شركة النسيج العربية التي تأسست عام (1942م)، كما يتوسع في الحديث عن صناعة الفخار(الخزف) واستعمالاته في بناء العقود، وعن شركة تسمى مناجم الكبريت الفلسطينية المحدودة في غزة، والتي تأسست عام (1930م).

ويستقصي المؤلف عن أبناء غزة المتعلمين، فيذكر من تعملوا الهندسة قبل عام (1939م)، وعن أطبائها في الفترة نفسها، وهم ثلاثة، ومحاميها الذين بلغ عددهم ثمانية (تاريخ غزة، 1943: 276).

كما ينتقل المؤرخ عارف العارف للحديث عن مقابرها الـ (13) ويفرد لها حديثاً موسعاً، كما يتحدث عن حماماتها، والمستمرة في العمل إلى زمن تأليف كتابه.

كما يتحدث عن مساجدها، وجوامعها، وأوقافها وعن محكمتها الشرعية التي يقول عنها إنها قديمة العهد جداً (تاريخ غزة، 1943: 279).

ويذكر أسماء الذين تولوها في العهد التركي والانتداب الإنجليزي، كما يُضمّن كتابه عدة جداول قيّمة لحالات الزواج والطلاق التي سجلتها المحكمة الشرعية في غزة في الفترة من (1924م-1933م)، حيث بلغت حالات الزواج (1576) حالة وحالات الطلاق (166) حالة (تاريخ غزة، 1943: 281).

وفي حديثه عن المياه في غزة يذكر المؤلف أربعة آبار نبع عمومية فيها، كما ينشر جدولاً عن كميات الأمطار التي هطلت على غزة منذ بداية القرن العشرين حتى عام (1943م)، ومن خلاله يتحدث عن زراعة غزة ومحاصيلها، وأسماء تلك المحاصيل، ويذكر جودة نخيلها وعنبها الذي يقول عنه: "إن عنب بربرة في منطقة غزة نال الجائزة الأولى في معرض لندن في الأربعينيات، ويقول إن أهم صادرات غزة هي الشعير، ثم يتوسع في الحديث عن زيتونها، وما ألم به من مصائب، وعن كمياته، وعن برتقال غزة، وما كان يواجهه من كساد (تاريخ غزة، 1943: 292).

ويكتب أيضاً عن مصارف غزة، وأعمالها المالية والتجارية وبنوكها، ويذكر بنك الأمة العربية الذي تأسس عام (1934م) وكذلك فرع بنك باركيلس الذي تأسس عام (1935م).

ثم ينتقل للحديث عن صيد الأسماك، ويعد منها (21) نوعاً، ويعطي لعام (1941م) رقماً في صيد السمك يبلغ (150) طناً بلغ ثمنها (21) ألف جنيه، كما يتحدث عن صيد الفر، وهو نوع من الطيور، وينتقل للحديث عن الميناء، ويقول: إنه ليس لغزة مرفأ، وإنما لسان ممتد في البحر من الاسمنت المسلح تم إنشاؤه في عهد الاحتلال الإنجليزي.

أما عن السفر إلى غزة من المناطق المجاورة لها وعن وسائل المواصلات فيها، فيقول: إن في غزة سيارات صغيرة وكبيرة وقطار، ويذكر أجرة الراكب في كل وسيلة، بعد ذلك يتحدث عن مطار أنشئ في غزة عام (1927م) ويضيف المؤلف أن مطار غزة كان لنقل البريد والركاب عن طرق الجو، ولم يكن ذلك المطار لفلسطين وحدها، بل كان للشرق الأوسط كله، حيث ذاعت شهرته من بوساطة كثير من الشركات التي تتنافس مع بعضها، حتى بلغت رحلات بعضها أربع رحلات في الأسبوع، كما وصلت أجرة الراكب بالطائرة من غزة إلى بيروت (5) ليرات، وبقيت غزة تحتفظ بأشهر مطار في الشرق الاوسط حتى أنشئ مطار اللد عام (1937م)، ثم ينتقل المؤلف للحديث عن مسافة قضاء غزة البالغ (1196) كم، وعن المدن المنتشرة فيه، وخاصة غزة، وخان يونس، والمجدل، والفالوجة، وعن القرى التابعة لها وعددها (35) قرية (تاريخ غزة، 1943: 299)، ويقدم المؤلف دراسة (أنثروبولوجية) تنطلق بأخلاق القرويين، وطباعهم، وملابسهم، وأزيائهم، وأعيادهم، ومواسمهم، كما تحدث عن ملابس الرجال في الطبقات المختلفة، وكذلك ملابس النساء، ويسمي كل نوع منها، ومن أي مادة هو مصنوع، كما ينتقل للحديث عن المواسم والأعياد، ويذكر منها خمسة مواسم معروفة في غزة.

ويفرد عارف العارف في كتابة فصلاً خاصاً عن جوامع غزة ومساجدها على الرغم من ذكرها سابقاً في فصول سابقة، ويذكر في هذا المجال أن المساجد التي يصلي فيها الناس ولا يقيمون فيها الجمعة أربعة عشر مسجداً، كما يتحدث عن المزارات الكثيرة، ويعددها ذاكراً عشرة مزارات منها.

وبعد أن يذكر المؤلف الجزء الأول من كتابه يذكر في نهايته أنه سيحدد الجزء الثاني منه عن تاريخ الأسر الغزية، غير أنه لم يبين عنوان هذا الجزء في الكتب التي تم نشرها، والتي كان آخرها كتابه الذي عرضناه والخاص بتاريخ غزة منذ عام (3750 ق.م لغاية سنة 1943م).

الخاتمة

يُعد كتاب "تاريخ غزة" لعارف العارف من أهم المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ غزة، رغم أنه لم يكن الأول، فقد سبقته أكثر من دراسة تمت الإشارة إليها في متن البحث، وعدم اتباع الباحث للمنهج العلمي التاريخي في الكتب التاريخية، واتباع المنهج الذي يعتمد على السرد التاريخي مع عدم ذكر المصادر والمراجع التاريخية التي اعتمد عليها في كتاباته، وهذا حال أغلب المؤلفات في عصره، والعصور السابقة لعصره خاصة عند حديثه عن تاريخ غزة عبر العصور المختلفة، وهذا يخلق مشكلة للباحث في الكتاب عن دراسة ونقد مصادره ومعلوماته التاريخية. ويؤخذ على هذا الكتاب بأنه:

- عالج فترة تاريخية طويلة تحتاج إلى عدد من الأجزاء لدراسة أوضاع غزة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية عبر التاريخ.
- لم يقسم المؤلف كتابه إلى فصول ومباحث، بل قسم الكتاب إلى عناوين صغيرة، حيث انتقل من عنوان لآخر دون مقدمات؛ مما أحدث إرباكاً في بعض الأحيان.
- لم يوثق معلوماته التاريخية التي أوردها في كتابه، ولم يورد قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها، وقد تكون هذه السمة والأسلوب الذي كان يتبعه الكتاب والمؤلفون في تلك الفترة.

ورغم اتجاه المؤلف في كتابه إلى معالجة بعض موضوعاته بطريقة السرد التاريخي الشامل، فإن هذه الطريقة أفادت الباحثين في تاريخ غزة فيما بعد في أنها فتحت أمامهم رؤوس موضوعات يمكن أن يُتعمق بها مستقبلاً، ومن جهة أخرى أصبح هذا المؤلف في أيدي المثقف غير المتخصص؛ لأنه يبعده عن سرد التفاصيل المملة، ويضع أمامه الخطوط العريضة لتاريخ غزة، ويساعده على فهمها، ورغم ذلك فالكتاب يُعد مصدراً مهماً لكل المهتمين من متخصصين وغيرهم الذين اهتموا بدراسة تاريخ غزة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

- أنطونيوس، جورج. (1982). يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية (ترجمة إحسان عباس وناصر الدين الأسد)، بيروت: دار العلم للملايين.
- البرغوثي، عمر صالح. (2001). المراحل، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بشارات، إبراهيم. (1999). من هو "رجالات من فلسطين" سلسلة شخصيات فلسطينية، عمان: مؤسسة التعاون.
- تماري، سليم. (1981). مع ناقة الله في سيبيريا "عارف العارف في الأسر الروسي خلال الحرب العالمية الأولى"، رام الله: دار بيت المقدس.
- دروزه، محمد عزة. (1993). مذكرات محمد عزة دروزة 1305-1404هـ/1887-1984م، المجلد الثاني، بيروت: دار الغرب الاسلامي.
- العارف، عارف. (1957). رؤياي، بيروت: دار ريحاني للطباعة والنشر.
- العارف، عارف. (1963). النكبة "نكبة فلسطين والفردوس المفقود"، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- العودات، يعقوب. (1976). من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، عمان: جمعية المطابع التعاونية.
- الموسوعة الفلسطينية. (1984): القسم العام، مجلد3، دمشق.
- مناع، عادل. (2008). أعلام فلسطين أواخر العهد العثماني (1800-1948)، ط4، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- يوسف، فوزي. (1961). كلمة الناشر في عارف العارف "المفصل في تاريخ القدس"، القدس: مكتبة الأندلس.

ثانياً: ترجمة المصادر والمراجع العربية إلى اللغة الأجنبية

- *Al-Barghouti, O, S. (2001). Stages, Beirut: The Arab Foundation for Studies and Publishing.*
- *Anthony, G. (1982). Arab Awakening History of the Arab National Movement (Translated by Ihssan Abbas and Nasir al-Din al-Assad), Beirut: House of Science for the Millions.*
- *Aref, A. (1957). My Vision, Beirut: Rihani Publishing House.*
- *Aref, A. (1963). The Nakba, "The Nakba of Palestine and the lost paradise", Beirut: Institution of the Palestinian Studies.*
- *Bisharat, I. (1999). Who is "Men from Palestine" Palestinian Personalities Series, Amman: The Cooperation Foundation.*
- *Daruzah, M. Z. (1993). Diary of Muhammad Azza Darwaza 1305-1404 / 1887-1984 AD, Volume2, Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islami.*
- *Manna, A. (2008). Flags of Palestine in the Late Ottoman Era (18000-1948), 4th Edition, Beirut: Institution of the Palestinian Studies.*
- *Aloudat, Y. (1976). Of the flags of thought and literature in Palestine, Amman: Cooperative Printing Press Association.*
- *Tamari, S. (1981). With a camel of God in Siberia, "Arif Al-Arif in Russian captivity during the First World War", Ramallah: House of Jerusalem.*
- *The Palestinian Encyclopedia: General Section, Volume3, Damascus, 1984.*
- *Youssef, F. (1961). A word from the publisher in Aref al-Aref, "The detailed focal point of the history of Jerusalem", Jerusalem: Al-Andalus Library.*